الأستاذ عبد العزيز جادو

أزعم فيما أزعم من الآراء أن صديقى الباحث النفسى الروحى الأستاذ عبدالعزيز جادو شخصية خيالية لاوجود لها فى عالم الحقيقة، وأنا أزعم لنفسى هذا الزعم على حين أزوره بين الفينة والفينة فأناقشه فيما يعن من الرأى وجهاً لوجه، ثم أتلقى خطاباته الدورية فأسارع بالرد عليها لتصل إليه وهو مع ذلك كله فيما أزعمه لنفسى من الآراء شخصية خيالية لاوجود لها فى دنيا الناس.

أأكون سوفسطائياًأنكر حقائق الأشياء؟ لاأعرف إطلاقاً أنى كذلك! ولكنى أتابع الدكتور طه حسين فى منطقه الذائع حيت كتب فصله البديع عن مجنون ليلى، فرأى من متناقضات أخباره، واختلاف أنبائه ومفارقات أحاديثه ماجعله يزعم أن قيساً شخصية خيالية، وهأنذا أشاهد سيلاً من المتناقاضات المتضاربة سيغرق صديقى عبد العزيز جادو فى طوفانه. فلا أتابع الدكتور طه حسين فى منطقه فأزعم ماأزعم، خطأ كان ذلك أم صواباً؟ والخطأ إذ ذاك هين مغفور لمثلى، وكيف وقد اغتفره القراء لعميد الأدب الكبير.

أجلس مابينى وبين نفسى بعض اللحظات فأنسى نسياناً تاماً أنى أعرف عبد العزيز وأصاحبه كتفاً إلى كتف، وأناقشه وجهاً لوجه، أنسى ذلك لأراجع أنباءه، وأبحث آثاره ثم أصدر حكمى على هذه المراجعة وحدها، فأجدنى أزعم أنه شخصية خيالية لم تعش فى الأسكندرية يوماً واحداً، وإنما لفق الرواة أخبارها، كما لفقوا أخبار المجنون، ثم صنعوا له مؤلفاته الكثيرة وأبحاثه الضافية، كما أنشدوا الشعر الغرامى وعزوه إلى قيس فى منطق الدكتور، وإذا تعجب القارىء من ذلك فليسمع:

لقد جاء عبدالعزيز الناس ذات يوم بشعر عروضى ملتزم نشره تباعا بمجلة «المعرفة» فعرف عنه البعيد والقريب أنه شاعر من مدرسة الشاعر الكبير على الجارم يحتذى ويقلد، وتوالت قصائده بالمعرفة لتؤكد هذا الطابع التقليدى، حتى ظن الناس أنه سيذهب إلى بغداد ذات يوم ويقول فيها ماقال الجارم الكبير هناك:

ألسنا حماة القول فى كل محفل تتيه فى كـل أرض مـنـابـره

وأخذوا يرصدون كوكبه من هذا الأفق وحده، ولكن أيديهم تمتد بعد فترة إلى قصة غرامية من الشعر المنثور تتضمن خطرات مهجرية تحت عنوان، «آمال» فيرى القراء نمطاً من قول جبران خليل جبران يحتذيه عبد العزيز، فيدهشون ويتساءلون: أصاحب رصانة السبك،وجودة الحبك فى شعر المعرفة هو صاحب الهمسات والومضات فى خواطر «آمال»؟ وكيف تلاقى الجارم وجبران فى إطار؟ لابد أن يكون هناك تشابه فى الأسماء، وأن عبد العرير جادو شخصيتان لاشخصية واحدة، ولكن صاحبنا أمام معارفه وأصدقائه يعترف أنه يجمع الثلج والنار فى إناء.

وإلى هنا، فالمسألة مسألة حيرة واشتباه فقط، لم تصل بعد إلى التناقض فى إنتاج عبد العزيز! ولكن هذه الحيرة تشتد حين نجد عبد العزيز يفاجىء الناس بضرب من الفلكلور الفكاهى ينشره فى مجلة «الراديو والبعكوكة»، وفى مجلة «الطائف المصورة» فيترك الجارم وجبران إلى احتذاء حسين شفيق المصرى! ويرى القراء فى إنتاج عبد العزيز شيئاً جديداً لايتصل بمجلة «المعرفة» ولا بمجموعة «آمال» بسبب من الأسباب! أهو عبد العزيز الثالث أم ترى ماذا؟

لازلنا فى دائرة الحيرة والالتباس! ولكننا نكاد نقطع الشك باليقين حين نمر فى شارع شهير بالأسكندرية، فنجد محلاً تجارياً كبيراً يبيع «الحدائد» المختلفة الحجوم، وقد وضعت عليه لافتة كبيرة تحمل اسم «عبد العزيز جادو» ونرى الرجل بلحمه ودمه يناقش فى أسعار المسامير والمفصلات، ويكايد زبائنه ويكايدونه . . لابد أن يكون هناك تشابه فى الأسماء وأنه عبد العزيز آخر دون نزاع، فإذا التبس الجارم بجبران وحسين شفيق فلن يلتبسوا جميعاً بسادتنا التجار. أترى قد ودع الرجل

عالم الشعر والأدب؟ من المعقول أن يحصل ذلك، ولكن ليس من المعقول أن يودع هذا العالم إلى المسامير والمفصلات فجأة دون أسباب؟ وهذا ماكان!

وتمر على الشارع الكبير بحى كليوباترة بالأسكندرية لتقرأ اللافتة التجارية مابين مصدق ومكذب فيدهشك ذات يوم أن ترى جوارها لافتة أخرى تقول: عبد العزيز جادو صاحب جريدة «الشاطئ» فتضرب كفاً بكف، وتقول: هل أصبح تاجر الحديد صاحب جريدة ورئيس تحرير؟ وتتطلع إلى قراءة الأعداد فتزيد الدهشة فى نفسك حين تجد فى صدر الصحيفة هذه العبارة «جريدة الشاطئ» توزع مجاناً لمن يطلبها. ماهذا؟ إن عبد العزيز الذى نعرفه فقير يعتمد على ستر الله فى تربية أولاده، ولن يعقل إطلاقاً أن يصدر صحيفة توزع بالمجان!! لابد أن هناك مليونيراً آخر يحمل اسم عبد العزيز جادو! ولكن إدارة المجلة بمنزل عبد العزيز؟ وكلمات الكتاب ورسوم الكاريكاتوريين توجه إلى عبد العزيز، وهو يطالع تجاهك مايرد من الرسائل، ويخط أمام عينيك الافتتاحية التى لاتلبث أن تقرأها فى صدر الشاطئ! مهما تأكدت من ذلك كله فأنا بعقلى لاأصدق! وأذهب إلى صديقى وصديقه الأستاذ الكبير نقولا يوسف فأسأله عن هذا الكنز الذهبى الذى انفجرت فوهته تحت قدمى عبد العزيز فجأة فأتاح له أن يوزع الشاطئ بالمجان؟ فيضحك نقولا ثم يقول: «كنز إيه ياعم»! المسكين يعتمد على بعض إعلانات تكفى نصف التكاليف، ثم يدفع النصف الآخر من عرق جبينه بالمحل الجديد! فأسأله ثانية: وماهذا العناء؟ لماذا لم يخفض قيمة الاشتراك بما يجعله يخرج من الهوى لاعليه ولاله؟ فيقول: لقد تعب! جرب ذلك بضعة أعداد فأكل المشتركون ثمن الشاطئ، وطال انتظاره بدون جدوى، فكتب عبارة «توزع مجاناً» ليريح ويستريح!ثم أغمض عينى لأنسى أن عبد العزيز حقيقة واقعة، أغمضها كيلا أراه وأنا أقول له: ولماذا لاتكتفى بالنشر فى الصحف، وتوصد «الشاطئ» رحمة بأولادك الضعاف؟ فيقول: أنا أنشر أفكارى هنا كما أريد، أما رئيس التحرير فى مجلة أخرى فله مواصفات خاصة قد لاتقبل كل مايقال. أنا حر ياعم!! وأسمع وأسمع ثم أقول، هذه رابعة المتناقضات!

وتفاجئنى دار المعارف ذات يوم وأنا بالمنصورة بعيداً عن عبد العزيز بكتاب نفسى يصدر فى سلسلة «اقرأ» تحت عنوان «الأحلام والرؤى» لمؤلفه عبد العزيز جادو، فأتصفح الكتاب، فأجده يلم بالحقائق الجديدة لعلم النفس، فيتحدث عما يقوله النفسيون عن اللاشعور، والحيل الوهمية، والعقد المركبة، وما إلى ذلك. وأنا أعرف أن تاجر الحديد وصاحب «الشاطئ» وتلميذ الجارم وجبران لم يدرس علم النفس دراسة مدرسية أو جامعية، فلابد أن يكون عبد العزيز جادو قطعاً هذه المرة غير عبد العزيز الإسكندرى الذى يسكن فى شارع الجمال رقم ٧ فى حى كليوبترة بالرمل البهيج، لن يكون هذا بحال من الأحوال، وكيف؟ والشاعر يقول:

الشـــرق منـــزلـــنا ومـــنزلهـــم غرب، وأيـــن الشرق والغرب؟

ولكن البريد يسرع إلى بهدية من كتاب «الأحلام والرؤى» تحمل توقيع عبد العزيز! يالله متى درس عبد العزيز علم النفس؟ وكيف تمكن منه تمكن المؤلف لاتمكن القارئ؟ وأين وجد وقته فى دنيا التجارة والصحافة والأولاد؟ وأتلمس الأبناء فأعرف أن «الشاطئ» قد احتجبت بعد أن أكلت كل ماادخره عبد العزيز، وأن الرجل أراد أن يتبصر بالقراءة فاندفع إلى مراجعة كتب كثيرة فى علم النفس من أوروبية وعربية حتى استطاع فى ثلاثة أعوام أن يكون بثقافته الذاتية عالم نفسٍ يضع الكتب المتخصصة كما يضعها أساتذة الجامعات فى كليات التربية والآداب!

ويطول عجبى فترجع إلى وسوستى، وأزعم أن الرجل شخصية خيالية؛ إذ كيف يحلل النفس البشرية بأدق الأجهزة العلمية بائع مسامير؟!! ولكن بحوث عبد العزيز تتتابع لتغيظنى وتربكنى حيث يحمل البريد بين الفينة والفينة كتباً نفسية تصدرها دار المعارف لعبد العزيز تحت عنوان «طرق النجاح»، و«كيف تكون سعيداً» و«نحو ابتسامة مشرقة» ثم أرجع إلى أعداد «الرسالة» و «الأهرام» و «الأديب» و«الأقلام العراقية» فأجد عبد العزيز يملؤها علم النفس! فأقول فى نفسى هذه العبارة المضحكة التى يقولها المصريون فى مجال التعجب والإعجاب: «يخرب بيتك يا عبد العزيز» أنت شيطان!»

وتمضى المفارقات إلى نهايتها، فيكتب لى بعض الأصدقاء بالأسكندرية أن الشخصية الخيالية تركت علم النفس واشتغلت بعلم الروح، فلا أكاد أصدق، ولكنى أعلم أن الباحث النفسى الشهير مكدوجل قد خطا هذه الخطوة فجعل ميدانه النفسى طريقاً إلى البحث عما وراء الغيب! فربما تكن روحه قد تقمصت روح عبد العزيز فانطلقت بها من شرارة علم النفس إلى ما وراء الأثير! وتصدق الأيام مازعم الصديق فتصدر دار المعارف فى سلسلة «اقرأ» كتاباً لعبد العزيز تحت عناون «الروح والخلود بين العلم والفلسفة» ويجيئنى البريد بكتاب عبد العزيز ممهوراً بإهدائه وتوقيعه! ولكنى أغمض عينى إذ لاأستطيع القدرة على مجابهة كل هذه المفارقات من المتناقضات.

وتسوقنى الظروف الطارئة إلى زيارة الإسكندرية فأهرع إلى محل الحديد لأسامر صديقى القديم بعض الوقت فأجد المحل غير المحل، والتاجر غير التاجر، فأدهش وأتساءل عن صاحبى، فأفاجأ بأن عبد العزيز جادو يشغل الآن منصب المدير للعلاقات العامة بإحدى الشركات التجارية الكبرى بالأسكندرية، لأن خبراته الاجتماعية قد جذبت إليه مجلس إدارة الشركة فاختاره مديراً للعلاقات العامة، حيث يباشر منصبه بدبلوماسية لايلم بها سفير متخصص فى وزارة الخارجية! وكم أزاح من مشاكل وذلل من عقاب! فأقول فى نفسى: ربما تسأل عن عبد العزيز مرة أخرى فيما بعد فتجده شيخ المعهد الدينى! أو متخصصا فى شركة لصابون! أو مهندساً فى مؤسسة للنسيج! ثم يقابلك فى كل هذه الوظائف ليثبت لك أنه فى كل وظيفة متخصص أصيل! وكأننا نعدو الواقع إلى الخيال.

وآخر نبأ تلقيته عن عبد العزيز أنه يعكف على خريطة الجزيرة العربية ليحدد الأماكن الأدبية القديمة مثل عكاظ، وسلع، والعقيق، وودان، والغوير، والرقمتين، وأنه يقرأ مؤلفات ياقوت، والبكرى، وحمد الجاسر، وأبى على الهجرى، وقد كتب عن بعضها بمجلتى «الأديب» اللبنانية و«العرب السعودية»! فلم أدهش فى شىء؛ إذ لو قيل لى إن عبد العزيز صعد فى مركبة أبوللو لينزل على سفح القمر مع الأمريكان لأنشدت قول القائل :

ليس على الله بمستكثرٍ أن يجمع العالم فى واحد

الأستاذ علي أحمد باكثير

كنت طالبا بالسنة الرابعة من القسم الابتدائى بمعهد دمياط الدينى، فوقعت فى يدى الثقافة التى تصدرها لجنة التأليف والترجمة والنشر، وبها إعلان عن مسابقة أدبية فى القصة الطويلة تبرعت بمكافأتها السيدة قوت القلوب الدمرداشية، ولم أكن أقدر قيمة أدبى الهش، فصممت أن أشترك فى المسابقة،وكتبت مايقرب من ستين ورقة تدور حول (فتح مصر) متأثراً بقصة طالعتها لجورجى زيدان فى هذا الموضوع، هى قصة أرمانوسة المصرية، وبمقال كتبه الأديب الكبير الأستاذ مصطفى صادق الرافعى تحت عنوان «اليمامتان»، وحين ظهرت نتيجة المسابقة كان الفائز بها الأستاذ على أحمد باكثير، إذ تقدم بقصة رائعة تحت عنوان «سلامة القس» .

ثم أخذت مجلة الثقافة تنشر قصة سلامة على حلقات متوالية كشأنها فى قصص الأستاذ محمد فريد أبى حديد، فأكببت على قراءة الحلقات لأعرف قيمة نفسى، فتأكدت أنى كنت غِرا حين قذفت بقلمى فى سباق بعيد الشوط لايجلى فيه غير الأفذاذ، إذ كانت قصة «سلامة» من روائع الأدب المعاصر فكرة وتحليلاً وتعبيراً وتصويراً، وماظنك برواية تدور حول العفاف الطاهر يتصدى لحب مضطرم كاللهيب، هائج كالبركان، فيمده بزاد من الصبر والثقة ورجاء المثوبة، ورغبة التوصل فى دار البقاء لا فى دار الفناء، وبطلها ناسك عابد اشتهر بالفقه والدين، وبطلتها مغنية رائعة الجمال نقلها حب صاحبها إلى دنيا التصوف والعفاف! أثرت هذه القصة فى نفس التلميذ الناشئ فجعل يترقب كل مايصدر عن براعة أحمد باكثير بشوق وصبر نافد ومن حسن الحظ أنه كان كاتبا إسلامياً ملتزماً فساعد نشأتى الأدبية مساعدة ألمسها فيما أفضل وأوثر من التيارات الفكرية المعاصرة، وقد

اختمرت فى نفسى فكرة لقائه والاغتراف من منهله عن عيان مشافه لااكتفاء بالورق المطبوع فحسب. . ولكن متى؟

قصيدة نادرة:

وبعد سنوات قاربت الخمس، لقينى أخى الأستاذ أحمد الشرباصى وكان يعرف إعجابى بعلم أحمد باكثير فأخبرنى أن حفلة تأبينية كبرى أقيمت لشهيد عربى شنق ظلماً واضطهاداً ألقى فيها الأستاذ على أحمد باكثير قصيدة كانت حديث المجتمعين كلهم، لأن الشاعر قد انتحى منحى مفاجئاً، إذ جاء بالقصيدة على لسان البطل الشهيد وقد افتتحها بهذا البيت.

فـيم احتفالـكمو هــذا لتأبينـى أنتم أحــق بتأبين الـورى دونى

ثم مضى يلوم الخاملين الخانعين، الذى يحنون رءوسهم للطغيان فى براعة فائقة، وحين انتهى من الحفل خاف المستمعون أن تعوق الرقابة نشر القصيدة فأقبلوا ينسخونها، وقد قام من يملى على الجمع، وكل يحاول أن يلتقط مايفد إلى سمعه، ثم جلس الناسخون لمقابلة الأبيات فكان ذلك مشهداً من مشاهد الشعر فى عصور بنى العباس قبل أن تأتى المطبعة، إذ يلقى شاعرٌ كأبى تمام قصيدته فيتسابق السامعون إلى تدوينها مشافهة، سألت فى لهفة وهل لديك نسخة منها، قال ليست عندى الآن، فقد أخذها من يمر بهامن المتأدبين من هواة الشعر الحماسى ، فقلت: لقد أقلقتنى، فكيف أصبر على ما أنا فيه قال: أنت تمر بالمنصورة فى طريقك إلى قريتك والأستاذ على أحمد باكثير مدرس للغة الإنجليزية بمدرسة الرشاد الثانوية، فاذهب إليه وهو إنسان نبيل متواضع، وإذا لم يكن معه نسخة فسيمليها عليك من محفوظه، فانتهزت أول فرصة للسفر ونزلت المنصورة مبكراً فتوجهت إلى الرشاد، وسألت عن الشاعر المطبوع، ولم يكن بالمجهول إذ قال من سألته إنها مدرسة باكثير وليست مدرسة الرشاد، كل يوم يأتى الأدباء ليسألوا عنه متشوقين، فقابلته، ورحب بى، وحادثته، وقد أدرك الشاعر حيائى من انقطاع كلماتى، فشجعنى بود كبير، أزال عقدة لسانى فأخذت أتحدث إليه عن إعجابى به منذ خرجت قصة سلامة إلى الوجود، كما عرف تتبعى لآثاره الفنية تتبعاً متصلاً

فأشرق وجهه بابتسامة ارتياح ثم تحدثنا عن القصيدة التى سعيت فى طلبها، فقال: إنها قيلت فى الشهيد العراقى البطل «صلاح الدين الصباغ» وقد وقف فى وجه الإنجليز بطلاً من أبطال ثورة رشيد عالى الكيلانى، ثم فر بعد اختفاء الثورة، ولجأ إلى تركيا ، ولسوء حظه وقع فى يد من قبض عليه لينفذ فيه حكم الإعدام علنا ببغداد، فهاج الرأى العربى العام فى كل مكان، فتأججت مشاعرى، فقلت هذه القصيدة مبتدئا بقولى على لسان الشهيد:

فيم احتشادكمو هذا لتأبينى ... أنتم أحق بتأبين الورى دونى

إنى نزلت بدار الخلدِ فى رغد ... بين الخمائل فيها والرياحين

فى جنةٍ مابها خوف ولاحزن ... لولا رثاء لحال العرب يشجينى

لاتندبونى فإنى لم أمت ضرعاً ... فإن علمتم على الذل فابكونى

وإن تريدوا لوجه الحق تكرمتى ... فابغوا الشهادة للدنيا وللدين

فابن الوليد على اليرموك يرقبكم ... وليث أيوب يرعاكم بحطين

وقد نزلت القصيدة من نفسى منزلاً كبيراً حين سمعتها من الشاعر، وكان لديه عدة نسخ فأعطانى نسخة عليها الإهداء الكريم، ولم ألبث أن قلت له لقد فاجأت المستمعين بمذهب جديد فى التأبين حين جعلت الحديث على لسان البطل الشهيد إذ أعدته ناطقاً شاخصاً، وكأنه هوالذى تكلم القصيدة لاأنت، فابتسم باكثير وقال لى: لى تجربة سابقة فى هذا المنحى، فقد احتفلت كلية الأداب بالجامعة المصرية بذكرى المتنبى الألفية حين كنت طالباً فيها، وأقيم موسم للبحث الأدبى حاضر فيه كبار الأساتذة كطه حسين، وأحمد أمين، وعبد الحميد العبادى، وعبد الوهاب عزام، وأحمد الشايب، ورأينا نحن الطلاب أن نقيم احتفالاً شعرياً يحضره الأساتذة ليسمعوا صوت الطلاب شعراء بعد أن سمعهم الطلاب باحثين، وكنت مشتهراً بنظم الشعر أنشره على صفحات الرسالة والفتح، فيلاقى قبول القراء فدعيت لإعداد قصيدة مناسبة، وقلت فى نفسى لابد أن تأتى بلون جديد يكون

محلاً للانتباه، فهدانى تفكيرى إلى أن أتكلم قصيدة على لسان المتنبى يتحدث عن نفسه ثم يشكر القائمين بالاحتفال بذكراه، فوفقنى الله إلى أحسن مايمكن أن أقول، وبدأت بقولى على لسان المتنبى:

من الملأ العلوى من عالم الخلد ... أهل عليكم بالتحـيات والحمـد
تقحمتُ حجب الغيب حتى أتيتكم ... لأجزيكم عن بعض إحسانكم عندى
كـأن الفضاء اللانهائـى سائـر ... على كُرة لاحد فيها سوى حدى
أجل ألف عام حال بينى وبينكم ... فهلا سبقتم أو تأخربى عهدى
ألا فتـزحـزح يـازمـان فإنـنى ... أقول فلا تقوى الجبال على صدى
أنا الخالد السارى بأعصاب شعبه ... وماشعبه بالنزر أو ضرع الخد

ومأأنشدت القصيدة حتى تجلت نعمة الله على فيما لاقيت من تشجيع وتعضيد وقد نشرت القصيدة بالأهرام وبالرسالة؛ وكان ارتياح السامعين لها دافعى إلى أن أنهج نهجها فى قصيدة التأبين، والحق أنى سعدت بلقاء الأستاذ،وقد تكرم فأهدانى بعض قصصه، وكتب الإهداء منوهاً بزيارتى، وخرجت سعيداً مغتبطاً.

استعارة من المكتبة:

كنت أراسل الأستاذ فى المناسبات العامة، فيرد على ثم جاءنى فى خطاب منه بعد انتقاله من المنصورة،وكنت مدرساً بها، يقول إن مدرسة الرشاد تطالبه بأربعة كتب ضاعت منه، ويريد منى أن أذهب إلى السيد ناظر المدرسة مستفسراً عن ثمن الكتب ليقوم بدفعه ثم ينتهى الإلحاح فى المراسلة، وقد سارعت إلى لقاء السيد أمين المكتبة، إذ هو القائم المباشر، فحدثته عن خطاب الأستاذ، فقام إلى السجل وذكر أن الكتب هى جزءان من حضارة الإسلام لآدم متز، والكشكول للعاملى، والموشى لأبى الطيب الوشاء،وقصة إنجليزية، فقلت له إن كتاب الحضارة بجزأيه عندى ،وسأحضره من مكتبتى، أما الكتب الثلاثة فماذا نصنع بها؟ وكان الأمين

على معرفة تامة بالأستاذ، فقال : إنى اضطررت إلى مراسلته تنفيذاً لطبيعة العمل، كيلا أسأل من فاحص يفتش علىّ، ويمكننى أن أسقط كتابين هذا العام من المستهلك، قلت: من يسقط اثنين يسقط ثلاثة، فسكت قليلاً ثم استجاب، وذهبت فأحضرت كتاب الحضارة، وأعلمت الأستاذ بما كان، فكتب يشكرنى، وأرسل إلىّ نسخة من كتاب الإمتاع والمؤانسة لأبى حيان التوحيدى فى ثلاثة أجزاء، وقال إنها عوض عن كتاب الحضارة، وقد بحث عنه فى القاهرة ليشتريه فلم يجده، وعلمت أنه أتحف أمين المكتبة بعدة روايات أدبية، فتقبلها شاكراً. . وقد انتقلت من المنصورة دون أن يعلم الأستاذ فكان يرسل بعض رواياته الجديدة إلىّ، ولاتحول على عنوانى إذ يتهالك عليها الزملاء حين تنتهى إلى حجرة المدرسين، علمت ذلك منذ سنوات، فكتبت للأستاذ على أخبره بأن القصور الشائن الذى وقعت فيه، حين لم أبادر بشكره على هداياه المتواصلة لاذنب لى فيه، فقد انتقلت إلى الصعيد، ولم أسعد بتسلم ماتفضل به من قصص فكان رد الأستاذ: لقد توقعت ذلك إحساساً لايكذب فاطمئن.

زيارة مفاجئة:

رجعت إلى التدريس بالمنصورة ثانية، وأعلمت الأستاذ بعنوانى الجديد، فتلقيت منه ذات يوم خطاباً يخبرنى فيه بأنه سيزور المنصورة، صباح الجمعة القادم، وقد اختار يوم الجمعة بالذات لأنه يتيح لى أن أصاحبه فى رحلة سأعرفها حين أقابله صباحاً بمقهى الكافورة، وحين أزف الموعد قابلت الأستاذ فرحاً، فقال لى: إن المجلس الأعلى للفنون والآداب قد عقد مسابقة أدبية عن انتصار المنصورة فى معركة لويس التاسع، وهى معركة ذات إيحاء قومى، فصمم على أن يشترك فى المسابقة بقصة يجعل عنوانها «دار ابن لقمان» وهى الدار التى أُسِرَ بها ملك فرنسا، وظلت إلى الآن ناهضة تلقى حديث الانتصار على الأجيال، وقد بدا له أن يصحبنى إلى أماكن بالدقهلية كانت مجال الصراع الحربى، ليرى من المشاهد مايوحى له بانطباعات قوية تلهمه وتهديه، وذكر من هذه الأماكن جديلة، وقرية أشمون، والبحر الصغير الذى هيأ المخاضة للعبور، فقلت له إن جديلة قرية ونبدأ بها، فقال هيا، فقد كانت باب النصر حين وقف الظاهر بيبرس بجنوده ليسحق

القادمين فى حركة مفاجئة، وركبنا السيارة، إلى بلدة أشمون، وشاهدنا البحر الصغير الذى كان نقطة هامة فى مسار الموقعة فى بدء أمرها، وكان مع باكثير كتاب إفرنجى عن حملة لويس جعل يتصفحه ذاكراً مادون به من الأماكن والأسماء، فقلت له: وأين المراجع العربية؟

قال: لقد قتلتها بحثاً، وأردت أن أتسلى بهذا الكتاب فى الطريق، ثم أخذ يتحدث عن خلاصة وافية لماكان، فقلت له: لقد سبق أن تحدثت عن الحروب الصليبية حين كتبت (سيرة شجاع) فقال لى: ومارأيك فيها؟ قلت: لاأدرى ربما أكون مخطئاً إذا قلت إن جانب التاريخ قد طغى فى كثير من صفحاتها على جانب الفن، فرد فى ابتسامة: هذا والله شعورى، وقد كنت أكتبها وفى أعماقى أن أسطر التاريخ الحقيقى لأحيى النخوة النائمة فى نفوس مريضة حين أذكرها بتضحية شجاع بن شاور حين وقف أمام أبيه، وفضل آصرة الإسلام والعروبة على آصرة الدم، وكان من حقه أن ينال الجزاء الحميد، ولكنه اغتيل ظلماً لذنب لم يرتكبه، وقد تركت مأساته فى صدرى جراحاً لاتندمل، ففرجت عن كربتى بتخليد ذكره، فكتبت قصة موجزة عنه ونشرتها فى مجموعة روائية ثم أحسست أنى لم أفعل شيئاً، فكتبت (سيرة شجاع) فى هذا النطاق المتسع، لأرعى مشاعرى الخاصة قبل أن أرعى حق الشهيد النبيل!

قلت إن القصة جديرة بالتمثيل! قال: دعنى فأنا أكابد من مخرجى الأفلام فوق الطاقة، فهم يريدون أن تكون المرأة في الرواية سيدة المواقف جميعها، وأن تحشر لقطات الغرام في كل مشهد، وإن كانت الرواية حربية تمثل الشجاعة فى مضمار الفداء والتضحية فليس من المهم لديهم أن تبرز هذه المعانى، لكن المهم أن تكون الممثلة فاتنة ذات إغراء، فماذا تصنع؟

ثم سألنى: أشاهدت قصة «سلامة» التى مثلتها أم كلثوم، لقد ظلمها المخرج ظلماً فادحاً، حين جعلها تظهر فى مرأى شائن يعبث بالتاريخ، فيغير الزمان والمكان وينطق الشاعرة الفصيحة بأزجال رخيصة، تثير الغرائز الهابطة، وماكانت هكذا «سلامة» وأنا أعلم أن أم كلثوم تتذوق الأدب العربى، وتغنى قصائد رائعة

لأبى فراس وأحمد شوقى وابن النبيه المصرى، فكيف تقبل أن تجارى هذا الانحدار، ثم إن مكان القصة هو الحجاز وله عبق خاص فى التاريخ أدبياً وفنياً، فكيف يكون المسرح فى العراق؟ وهو فى عهد «سلامة» مركز القلاقل الحربية والثورات السياسية وكيف يجرؤ مخرج يفهم حقيقة الفن أن يلقن «سلامة» طقاطيق «سلام الله على الأغنام» و «الحب حلو ولاحراق» و «غنى لى شوى» وهى عربية فصيحة نشأت فى عهد الأمويين؟ قلت: ألم تذكر أن القصة مسروقة ياسيدى فى أصلها وقد اغتصبت غصباً؟

فقال باكثير: ليست هذه أول مرة تغتصب أم كلثوم بإيحاء أحمد رامى عمل الآخرين، قصة «دنانير» كتبها الأستاذ إبراهيم جلال، وأعطاها لأم كلثوم لتنظر فى صلاحيتها للتمثيل، وفوجئ المؤلف بأن أحمد رامى قد نسخ القصة وكتبها باسمه، فاحتج فى الصحف ولامن سميع!

كان حديث باكثير شائقا معجباً طول الرحلة، وليتنى دونته في حينه، إذ لم يبق منه فى خاطرى غير قطرات من وابل دفاق! .

لم تطرد مقابلاتى كثيراً، وإن كنت أتابعه قارئاً مستفيداً، وقد علمت أن أعداء العروبة والإسلام من الماركسيين قد أرهقوه، وحاربوا اتجاهه الملتزم، وضيقوا عليه حتى حدثته نفسه بالرحلة ثانية إلى حضرموت فراراً من هذا الاضطهاد الأثيم، ولكن الرحلة لم تكن إلى حضرموت بل كانت إلى جنة الخلد، وماعند الله أشهى وأطيب.

* * *

الأستاذ محمود على قراعة

لم أر فدائياً فى عطائه العلمى مثله، لقد آلى على نفسه منذ تخرج فى كلية الحقوق المصرية سنة ١٩٣٤ أن يصدر سلسلة الروح الجامعية، فى أجزاء بلغت خمسة وعشرين كتاباً، أكثرها يفوق أربعمائة صفحة، وهو يطبعها على حسابه ويوزعها على القراء بدون أجر، إلا فى أحيان قليلة تأخذ بعض الوزارات الثقافية عدة نسخ محدودة من كتاب، وتمنحه مايعادل أجر الطبع، وقد أحيل إلى المعاش مستشاراً لوزارة العدل، وله زملاء كبار يعرفون جهاده العلمى ويقدرون صبره علي البحث بدون نفع مادى بل بخسارة محققة، ولكنها كسب له فى أجره الأخروى إذ تدور مؤلفاته حول شئون الفقه والإسلام والتاريخ رحمه الله.

عرفت الأستاذ محمود على قراعة فى سن باكرة من حياتى التعليمية إذ قرأت له مقالاً ضافياً بمجلة الرسلة سنة ١٩٣٩م عن نعيم الجنة ناقش فيه الدكتور زكي مبارك حول نعيم الجنة الأخروى، إذ ذهب الدكتور إلى أنه نعيم مادى حسى، وذهب الأستاذ قراعة إلى أنه نعيم روحى فحسب،وأطال فى تعداد أدلة تؤيد منحاه، ويذهب إلى تأويل النصوص التى يدل ظاهرها على أن نعيم الجنة حسى وقد قرأت كلام الأستاذ فوجدت قدر فهمى إذ ذاك وأنا طالب بالقسم الابتدائى- أن من النصوص الصريحة مالايقبل التأويل حتى مع التعسف الشديد، وكتبت رداً بعثته إليه بعنوان مجلة الرسالة وبعد أسبوع تلقيت منه رداً مستفيضاً يبلغ خمس ورقات تزدحم بالنصوص والتعليقات، ويختلط أسفلها بأعلاها، وعلى الهوامش من الجانبين تعليقات أخرى، ممايدل على أن الأستاذ حين كتب الرد وأراد مراجعته عنت له أفكار جديدة فأخذ يضعها فى الهوامش عن يمين وشمال ومن أعلى وأسفل! مشكورا إذ لم يغفل اعتراضاً وجه إليه فدافع عن رأيه قدر المستطاع.

مضت سنوات طويلة جاوزت العشرين، ثم رأيت فى البريد مجلداً كبيراً تحت عنوان (نفحات الحبيب الشفيع)، يصل إلىّ بالبريد مهدى من مؤلفه الأستاذ محمود على قراعة، والكتاب ذو معلومات قيمة ولكن ترتيبه كان موضع نظر جاد منى، حيث تظهر العجلة البارزة فى سرد الموضوعات وأفكارها دون اهتمام بالتوافق المطرد للأسلوب المتلاحم، فكتبت له شاكراً، وأبديت رأيى فى ترتيب الكتاب، وصادف أن كنت أمر فى منشية البكرى بشارع الخليفة المأمون فوجدت بطاقة تحمل اسم الأستاذ محمود قراعة فدفعنى إلى رؤيته على غير سابق موعد، وطرقت الباب لأجدنى أمامه وجهاً لوجه، فهم للقائى وتبادلنا الحديث، فذكرته بخطابه القديم إلىّ حين كنت طالباً بمعهد دمياط، وقلت فى ابتسام هادىء إن روح الماضى لاتزال تلوح في المؤلف الجديد، وأرى أن يهتم الأستاذ بترتيب الأبواب، وتنوع المصادر، فأصغى لى فى هدوء ومنحنى مؤلفاً للشيخ حمزة فتح الله، وهو جزءان تحت عنوان (المواهب الفتحية) وقال إنه فى غنى عنهما، لأن موضوعاتهما العلمية تناسب مدرساً للغة العربية مثلى، فشكرته شكراً جزيلاً، ثم قال: إنه آلى على نفسه أن يخرج كل عام مؤلفاً إسلامياً، وهو يعمل ليل نهار بعد انتهاء عمله بالوزارة كى ينجز المؤلف فى زمنه المحدد، وهذا سر العجلة التى أبديت وجه النظر بشأنها، وانصرفت ولاأدرى أوقع حديثى النقدى منه موقع الارتياح أم أنه آنس فى صراحتى موضعاً لقلة الذوق! بقيت حائراً لاأهتدى إلى رأى قاطع ثم جاءنى بعد شهور كتابه «الأخلاق فى الإسلام، من أحاديث الرسول، وفتاوى ابن تيمية» وفى مقدمته يتحدث الأستاذ عن أصدقاء كبار من زملائه أهدى إليهم الكتاب السابق وشكروه على اتجاهه، ثم قال «وأهدى هذا الكتاب إلى الأخ الأستاذ محمد رجب البيومى الذى أهديته كتابى الماضى فنقده صادقاً، وزارنى متفضلاً فسرد لى مآخذ الكتاب قبل محاسنه، فكان أصدق من رأيت فى حياتى».

قرأت هذه العبارة فعجزت عن شكره، لأنه بدد ظنى المتوهم من قبل، وأقبلت على قراءة كتابه الجديد (الأخلاق فى الإسلام، من أحاديث الرسول وفتاوى ابن تيمية) فرأيت أن فتاوى ابن تيمية تكاد تكون وحدها مرجع المؤلف، كما وجدت الأبواب فى حاجة إلى ترتيب جديد، فدفعنى ماوجدت فى عبارته السابقة من

تقدير للنقد، أن أبدى له وجهة نظرى فى كتاب (الأخلاق) ويظهر أنى قسوت فى النقد، أقول «يظهر» لأنى لاأحتفظ بمسودات لما أكتب للأدباء والمؤلفين وبعد أيام جاءنى خطاب مسجل منه فى أربع صفحات يحتج على قولى فى الخطاب السابق إذا أردت أن تطبع كتاباً جديداً، فتفضل بدعوتى لنشارك فى ترتيبه، فرددت عليه، بما يثبت حسن نيتى وظننت أنى تجاوزت الحد معه، وأنا والله محب صادق!

ثم كانت المفاجأة التى تدل على براءة الأستاذ وطيبة قلبه حيث وصلنى مؤلفه الجديد «تكفير سيئات الصغائر بالقربات، وسيئات الكبائر بالتوبة» فوجدت الأستاذ يشير فى مقدمة الكتاب إلى كل ماكان منى بشأن كتابه، فهو يقول فى سجل إهدائه المتعارف (ص ١٠ من الكتاب):

«إلى الأخ الدكتور محمد رجب البيومى الذى ذكر فى خطاب أرسله فى أول أبريل سنة ١٩٦٧ عبارة تقول: إذا كان لى رجاء لديك، فهو أن تتكرم باستدعائى حين تفرغ من كتابة أى مؤلف لنتشاور معاً في الحديث عنه، قبل أن يصبح حقيقة واقعة فى أيدى القراء، ولما أرسلت إليه معترضاً على هذا القول منه ــ لأنى لاأرضى عن قيم علي أفكارى، وإنى قليل الكتابة في الصحف لأن رؤساء التحرير يعطون أنفسم الحق فى تحوير مايصل إليهم من مقالات حتى ولوخرج عن هدف كاتبها، وانى لاأسترشد في كتاباتى إلا بضميرى، حتى أنى لم أطلع أبى ــ رئيس المحكمة الشرعية السابق على ماأكتب، لما أرسلت إليه معترضاً، أرسل فى ٥ أبريل سنة ١٩٦٧ يقول: سامحك الله ياأخى، لقد فهمت مالا أقصد ومالايمكن أن أقصد، من قال إنى أريد أن أكون قائماً على تأليفك! لو كنت تعلم أن المؤمن مرآة أخيه، وأن المرحوم الأستاذ فريد وجدى وهو كان يخصنى بقراءة بعض مايكتب وأمامك أستاذنا الزيات «يقصد الأستاذ أحمد حسن الزيات قبل وفاته»، فاسأله، فكثيراً ماتعرض علي مقالاته قبل أن تطبع، أين ذهب تفكيرك ياأخى سامحك الله، كل ماكنت أريد أن أقوله إنك مسرع جداً فى التأليف، لدرجة أن المؤلف الضخم من كتبك تخرجه فى أقل من عام، وهذا نشاط حميد ممتاز ولاشك، فهل إذا قلت إنى مستعد لمراجعة هذا الفيض الهادر كالطوفان معك، أكون مساعداً أو قواما، لقد ضاعت معانى الألفاظ أو كادت فكيف يشتط بك الوهم؟!.

هذا ماسجله الأستاذ فى صراحة رائعة فى كتابه، ثم أفرد فى الهامشين المتتابعين من الكتاب صفحتين تتحدثان عن رسائل إليه، وكنت قد نسيت ماكتبت له، فلما أعاد تسجيل بعض المعانى الهامة في هذه الرسائل خيل إلىّ أنى أقرؤها من جديد، وسأحاول أن أنقل منها فى هذا المقال، لأنها تصور علاقتنا الأدبية الصريحة أتم تصوير، وبذلك يكون الأستاذ محمود هو الذى يتحدث لاأنا، حيث استوعب وفهم ولخّص وأفاد..

يقول الأستاذ محمود «فى ص١١ من كتابه» «أذكر عناية الأستاذ الدكتور البيومى بتقريظ كتبى ونقدها فى آن واحد، فقد أرسل لى فى ١٢/١١/١٩٦١ عن كتاب (مشكلات عواطف الشباب) خطاباً يقول «فيه مزايا كثيرة أهمها وفاؤك لأساتذتك، وحشدك المعارف الكثيرة من كل ناحية مع اهتمام بالمثل العليا والسلوك النبيل، ورسم الطريق السوى، ولكننى أجد خلف ذلك أنى منه أمام غابة شجراء فيها الدوح والثمر والماء والطير، وفيها مع ذلك بعض الأشواك، فاعتمادك على بعض المصادر المتواضعة من ناحية ونقلُك قصة الرجل الطيب محمد الجنبهيى والإكثار من الحوادث الشخصية، كل ذلك يحتاج إلى تعديل ما».

هذا ماذكرته وسجله الأستاذ، وإن كنت أذكر أنى أرسلت له صفحتين كبيرتين، فلابد أن يكون للتقريظ صفحة، وللنقد صفحة مماثلة، وأنا فعلاً لم أمل من مؤاخذة الأستاذ على الإسهاب فى بعض مالاغناء فيه، وأذكر أنه قال فى زيارتى الأخيرة له قبل أن ينتقل إلى رحمة الله إنك لوقرأت ماكتبه السيوطى وابن حجر والسخاوى فى مؤلفاتهم الموسوعية لرأيتهم أكثر منى استطراداً وأطول إسهاباً، فقلت له: إن طابع العصر المملوكى غير طابع العصر الحاضر، إذ كان أكثر المؤلفين يجمعون ويلخصون دون تحليل أما نحن الآن فنقف عند الخبر الواحد وقفات مستأنية. لنسبر غوره، ونعرف أبعاده، ومايمكن أن يختفى تحت ألفاظه من المعانى التى لاتدرك إلا بإمعان، وردعلىَّ الأستاذ بما لم أوافق عليه ليْلَتئِذ، ولكن الجلسة كانت ذات ود وترحيب.

ويتابع الأستاذ حديثه عنى فيقول «أرسل إلى رداً على برقية لى أهنئه فيها بالعام الهجرى يقول: وصلتنى برقيتك فعرفت منها الكثير، عرفت أن اعتزازك بالمواسم الدينية، يجرى في عروقك مجرى الدم ، وفى رئتيك مجرى التنفس، ولاريب فأنت غصن من دوحة طاهرة أصلها ثابت وفرعها فى السماء، وعرفت منها أنك كثير الوفاء حتى لمن لم يسعدهم الحظ بطول صحبتك [مثلى] ولكنهم يعرفونك على البعد، بآرائك الحية، ومؤلفاتك الخالدة، وتأثيرك البعيد، لقد رأيت أن أجمع مؤلفاتك فى مكتبتى المتواضعة، حيث أفردت لها مكاناً عزيزاً».

والحق أنى لم أتعود أن أتلقى تهنئات برقية فى مواسم الهجرة والمولد ورمضان، ولكن الأستاذ محمود كان يفاجئنى بهذه البرقيات ذات الدلالة النبيلة، وقد كتبت له ماسبق عند وصول برقيته الأولى خاصةً بالتهنئة بالعام الهجرى، ثم تتابعت برقياته، لامختصرة مقتضبة، ولكن سطورها تتجاوز الخمسة، فكنت أكتفى بخطاب يتحدث عن الذكرى تارةً، وعن تأثرى بهذا الشعور النبيل تارة! وكنتُ من زمن يسير أرى بعض الناس يتبادلون التهانى فى عيد الميلاد أوائل يناير، فأذكر الأستاذ محمود مترحماً عليه، وأقول لقد حاول الرجل أن يعلم أصدقاءه، ولكنه لم يفلح، إذ لاشك فى أنّه كان يرسل هذه البرقيات الموسمية لعدد من أصدقائه. ولايختصنى وحدى!

ثم مضى بعد ذلك يذكر ماراسلته به عن كتابه «الأخلاق فى الإسلام» مسجلاً نقدى، ووجهة نظرى المخالفة، كما ذكر ماراسلته به خاصاً بكتابه (المسلم الكامل من أحاديث الرسول وفتاوى ابن تيمية) ولم ينس أن يسجل نقدى الجوهرى له، والحق أن الأستاذ قراعة كان في نتاجه العلمى شعلة لاتخمد، فهو لايفتأ مفكراً فيما يكتب ويقرأ على طريقته التى ارتضاها، وقد نشر وهو طالب بكلية الحقوق مؤلفاً عن الوقف فى الشريعة الإسلامية حاز تقدير فقيه العصر الشيخ أحمد إبراهيم بك رئيس قسم الشريعة بكلية الحقوق حينئذ، وقد سارع بعضُ مدرسى الشريعة بالكلية إلى رجاء الطالب فى إعادة طبع الكتاب مع زيادة يسيرة يكتبها المدرس ليظهر الكتاب فى طبعته الثانية حاملاً اسميهما معاً، ولكن الطالب فاجأ أستاذه بالرفض .

فقال الأستاذ له إنه سيقرر الكتاب على الطلاب، فيضمن لك كسباً مادياً، وذخراً علمياً، فأصر محمود على الرفض وهذا ماسجله فى بعض مؤلفاته، وهو صادق لأنه يتحدث عن نفسه، فيسجل كل مأخذ ووجه به، ومثله لايلجأ إلى الادعاء!

كم أسفت لأنى كتبت رسائل نقدية كثيرة لمؤلفين! أهدوا كتبهم إلىّ، بدون أن أحتفظ بصورة منها، لأن ماكتبته لهؤلاء لايختلف عما سجله الأستاذ محمود فى رحابة صدر، واتساع نفس، ونقاء ضمير..

* * *

الأستاذ محمد زكى عبد القادر

كنت أحب أن أتحدث إليه ، وأصغى إلى أفكاره متحدثاً ، كما أستمع إلى أدبه قارئاً، ولكن الرجل متحفظ هادئ، لايجمع حوله التلاميذ، ويؤثر أن يمضى فى عمله الفكرى كما يجرى الغدير الهادئ فى الغابة تحت ظلال الشجر دون أن يراه أحد فى صفائه الرائق ونميره المتألق، وكان أعظم مايحيرنى فى أمره أنه كاتب قصة ممتاز. يصدر المجموعة خلف المجموعة ذات نبض نفسى،وحيوية اجتماعية وتصوير أدبى ثم لايحسب مع القصاص حين يتحدث الناقدون عن كتاب القصة لأن أشتغاله بالصحافة محرراً ذا لون خاص من ألوان التحليل وولوعه بالدراسات القانونية والسياسية جعل هؤلاء يحسبون أنه ضيف على القصة ، مع أن نتاجه الفنى يجلسه مجلس الفنان الأصيل وفى يوم من الأيام طلبنى الدكتور عبد الحسيب طه أستاذ الأدب بكليةاللغة العربية وقال لى: إن فضيلة الأستاذ الشيخ عبد السميع شبانة أستاذ النحو والصرف بالكلية قد انتقل إلى رحمة الله كما تعلم، وإنه من أسرة الأستاذ محمد زكى عبد القادر بفرسيس،إحدى قرى محافظات الشرقية، وقد اتصل الكاتب الكبير بالكلية راجياً أن يقابل أحد تلاميذ الشيخ،ليسأله عن تأثيره العلمى والاجتماعى فى محيطه الأزهرى، إذ يعد عنه دراسة تحيى ذكراه ، وقد انتهت الكلية إلى أن تكون رسولها المختار إلى الرجل بمكتبه فى جريدة الأخبار، فماذا ترى؟

قلت: ياسبحان الله إنى مذ سنوات أتلمس الفرصة السانحة لمقابلة الكاتب الكبير،ولكنى لم أكن أحب أن أتطفل على مجلسه كيلا أكون ثقيل المحضر، وهاهى ذى الفرصة تتهيأ إلىّ،أنا سعيد بها كل السعادة.

وقد اتصل الدكتور عبد الحسيب بالأستاذ محمد زكى عبد القادر يخبره أنى سأكون فى زيارته بالساعة العاشرة من صباح الغد، وقد حاولت أن أهيئ فى نفسى أسئلة أدبية أتوجه بها لمفكر لكبير، ولكنى رجعت عن هذا المذهب، وقلت دع الحديث يجرى حراً بدون إعداد.

قابلت الأستاذ فى الموعد المحدد، فرأيت من هدوئه و سكون نظراته، واتئاد منطقه ماتوقعته فى ذهنى قبل أن أراه، لأن كتابة الأستاذ تنبئ عن هدوء متزن بحيث لاتثيره العواطف الهائجة، وحين يستشار لايخرج عن طبيعته الهادئة. بل يقابل النار الملتهبة بهدوء يشبه الماء البارد الذى يطفئ الحريق المشتعل، وقد حيانى تحية طيبة ثم قال إن الفقيد العزيز من أخلص أقربائه، وقد فقد بفقده دوحة وارفة الظل، إذ كان إيمانه الجازم يبعث فى روحه سلاماً ينتقل إلى سامعه فيطرد عنه عواصف الشك، ويفسح أمامه طريق الأمل، وكان الأستاذ يسعى إلى لقائه فى أزماته الفكرية لينتقل من جو إلى جو. فيعود وقد أزاح عن صدره مايحمل من الأعباء ولذلك يسألنى عن سلوكه الروحى واتجاهه العلمى فى محيطه الأزهرى.

قلت إن ماذكرته عن صفاء الأستاذ وقوة إيمانه قد كان مصدر سلوكه الاجتماعى بكلية اللغة فنحن التلاميذ كنا نعتبره والدا قبل أن نعتبره أستاذاً إذ كان يحرص على أن يعرف أحوال الطلبة الاجتماعية وظروفهم النفسية ويحدد مواعيد اللقاء بمنزله المتواضع وله فى تحديد الميعاد فطرة مطبوعة على التقوى إذ يقول للطالب تزرونى بعد صلاة العصر من يوم كذا، أو بعد صلاة المغرب من يوم كذا، أو بعد صلاة العشاء من يوم كذا ، وبهذا أصبح موعد الصلاة هوعقرب الساعة الذى يحدد الميقات! ثم يستقبل زائره ببشاشة ويخوض معه فى شتى أموره. وقد يكون الطلاب أربعةأو خمسة أوأكثر فيجلسون مع الأستاذ على السجادة، وكأنهم يجلسون في المسجد وقد يحضر بعض الأساتذة لزيارته وكلهم من ذوى اتجاهه. فلايتغير الوضع ،إذ الجميع جلوس يتناقشون أو يتسامرون.

ابتسم الكاتب الكبير وقال هذا ماتوقعته تماماً دون أن أراه ، لأن سلوك الأستاذ فى قريته (فرسيس) مع أبنائها الفلاحين أو العمال أو الطلبة هو سلوكه الذى تحدثت عنه وكنت أثناء زياراتى للريف لاأجده إلا ساعيا للخير، مصلحاً بين زوجين يتشاجران، أو مواسياً مريضاً عز عليه الشفاء أوساعياً فى إيجاد وظيفة لعاطل محروم، حتى كانت إجازته السنوية موضع ارتقاب القرية جميعها ، وكنت أغبطه على اتجاهه الذى لاأقدر عليه!

ثم سألنى الكاتب الكبير قائلاً: وماذا عن اتجاهه العلمى، وطريقته فى التدريس؟

قلت: لقد كان الأستاذ يدرس مادة عسيرة الهضم، شديدة التعقيد، وهى مادة (الصرف) وكان يدرس للسنة الرابعة أعقد أبواب هذه المادة وهو باب (الإعلال والإبدال) فيبذل جهده الجاهد فى تذليل الصعاب وتقريب البعيد،وقد وضع للطلاب كتاباً طبع خمس طبعات وهو فى كل طبعة يكثر من الأسئلة ويجيب على التمارين ويصنع مايشبه المعجزةفى تفتيت الأحجار.

قال الأستاذ: أريد أن أقرأ نموذجاً من كتاب الصرف؟

قلت متسرعاً: الكتاب فى منهجه الدراسى لايروق لغير الوسط الأزهرى لأن الطلاب قد ألفو هذه المادة من السنة الابتدائية الأولى. ولايزالون يوالونها اهتماماً وتحصيلاً حتى يبلغوا السنة الرابعة بالكلية، فتكون لديهم ركيزة ثابتة تعين على الاستمرار.

فأجاب الأستاذ: وهل تكون هذه المادة أصعب من مادة أصول الفقه وقد درستها بسهولة فى كلية الحقوق ثم فى الدراسات العليا بالكلية دون أجد صعوبة ما.

قلت: إن دراسة علم الأصول بكليات الحقوق غيرها بكليات الأزهر، لأنى أعرف أن أساتذة الشريعة هناك من أمثال الشيخ أحمد إبراهيم والأستاذين عبد الوهاب خلاف، وعلى الخفيف، ومن سار هذا المسار، قد كتبوا مذكرات واضحة

تجمع حقائق هذا العلم، وأراحوا الطلاب من عناء الحواشى والتقارير، التى تدرس بكلية الشريعة بالأزهر! ولذلك فدراسة الأصول عندك كانت مريحة لاتمتلئ بالعقبات.

فرد الرجل فى ابتسام: أنت محيط واسع،ويسعدنى أن أعرفك. ولكن لابد أن تحضر لى نسخة من مؤلف الأستاذ، وسأنتظرك فى بحر أسبوع ، فلا تبطئ، ثم صافحنى بحرارة وودعنى إلى الباب.

بعد أسبوع :

رجعت للأستاذ بعد أسبوع ،ومعى نسخة من كتاب (القواعد والتطبيقات فى الإبدال والإعلال)، فأخذها الأستاذ ،ونظر إلى العنوان دون أن يتجاوزه ثم قال لى: لقد وفيت بوعدك، وأنا أشكرك، ثم أسألك عن قراءاتك الثقافية لأعرف اتجاه طلاب الأزهر الآن!

فأجبت: كنت طالباً بالقسم الثانوى أيام كانت تصدر مجلتا الرسالة والثقافة، وكنت أعتز بهما اعتزازاً كبيراً ، ولم يفتنى عدد منهما درن قراءة واعية ثم استدركت أقول،وكنت أطالع على فترات متقطعة (مجلة الفصول) التى كنت تشرف على إصدارها،

فابتسم وقال: هذه تحية منك ولاأعجب لاختيارك مجلتى الرسالة والثقافة فهما لسان التراث العربى بالذات ، والأزهريون حفظة هذه التراث.

فرددت فى سرعة: نظلم الرسالة والثقافة حين نؤكد أنهما تقصران بحوثهما على التراث العربى وحده، إذ كان أعلام الفكر فى مصر يحتلون صفحاتها وهؤلاء الأعلام لايعيشون على طعام واحد، وإذا كانتا تهتمان بالتراث العربى فهذا ضرورى محتوم لأنه يمثل الجذور التى تمد الشجرة بالغذاء! على أنى أرى أن الرسالة مع اهتمامها بالثقافة الغربية كانت أقرب إلى التراث العربى من الثقافة، لأن القائمين على تحرير الثقافة لجنة علمية لافرد واحد، وفى هذه اللجنة الأديب

والعالم والمهندس ومن يمثلون فروع المعرفة المختلفة، أما الأستاذ الزيات فهو وحده المسئول عن الرسالة، وقد أظهر مجلة الرواية عدة سنوات لتقوم بنشر الروائع الممتازة من أدب الغرب، كما ترجم قصصاً ممتازة لجى دى موباسان، ولامرتين، وجوته، وغيرهم.

قال الرجل فى هدوء هذا صحيح ، وماذا تتذكر من موضوعات (مجلة الفصول)؟

قلت: أذكر اتجاهها الممتاز إلى الوضع الاجتماعى ومحاربة الفساد سياسياً واقتصادياً، وتسليط الأضواء على الحياة الغربية ،ولاأدرى لماذا تقترن فى ذهنى أعداد الفصول بأعداد مجلة (المختار)؟

فضحك الرجل ، وقال: هذا نقد مقنع ،معناه أننا ننقل من المختار، فقلت، قد يكون النقل فى الإطار العام، لافى العناصر الداخلية، فالفصول مصرية ، ومصرية مشرفة، وأخذ الحديث يدور فى شئون كثيرة حتى رأيت أن أستأذن، فقال لى الأستاذ ، لاتنس أن تكثر من زيارتى فقد بدأت أشتاق إليك.

زيارة مفاجئة:

مضت مدة طويلة ولم تسمح زياراتى الخاطفة إلى القاهرة بالتردد على الأستاذ، وفى بعض الأعوام تلقيت خطاباً من الأستاذ عبد الرحيم فودة رحمه الله يعلن فيه أنه سيقوم بتحرير الصفحة الدينية فى جريدة الأخبار طيلة شهر رمضان ،وأنه يطلب منى عشر مقالات موجزة ، لتأخذ دورها فى النشر ، ويترك لى تحديد الموضوعات، على ألا تخرج عن الإطار الدينى المناسب للشهر المبارك وحبذا أن تتجه للتاريخ الإسلامى، وقد رحبت بالفكرة إذ صادفت هوى فى نفسى وأرسلت المقالات العشر للأستاذ قبل أن يبتدئ الشهر الكريم ، وقد بدأت الجريدة فى نشرماأرسلت ولكننى فوجئت بأنها تختصر بعض المقالات مع أنها موجزة بطبيعتها والصعب المؤلم فى هذا الاختصار أنه يغفل التحليل الذاتى للنصوص والأحداث ، وتثبيت الآثار والوقائع الشائعة المشتهرة، وبهذا أكون مجرد ناقل! فتأثرت كثيراً ورأيت أن أصبر فلعل الاختصار لايستمر ، ثم فوجئت ببعض مقالاتى تظهر فى الصفحة الدينية بدون توقيعى، وبغير أن تنسب إلى كاتب ما، فلم أستطع

التحمل، وسافرت إلى إدارة الجريدة من الفيوم التى كنت أعمل بها وقابلت المحرر المختص، إذا كان الأستاذ عبد الرحيم غير موجود ، فقال لى : هذه ضرورات صحفية لابد منها وسأقبض ثمن مانشر سواء أكان المقال موقعاً باسمى، أم غفلاً من الإمضاء! فحدثتنى نفسى أن أتصل بالأستاذ محمد زكى عبد القادر وهو بالدار فى مكتبه الخاص لأعرض عليه ظُلامتى، وفوجئ الأستاذ برؤيتى على غير انتظار فوقف يستقبلنى فى بشاشة، وقد حدثته بما وجدت فاستمع فى هدوء مفكر ، حتى إذا أفرغت مافى جعبتى قال لى فى أناة مطمئنة ، وكأنه يتحدث عن مسألة لاتخصنى.

قال الأستاذ: أما إهمال اسمك عند التوقيع، فهو موضع المؤاخذه ،ولاأدرى ماسبب ذلك،وما حكمه؟ فالمقال دينى، ولايتحمل نتائج خطيرة تكون موضعاً لتحقيق ما ،وسأتصل بالقائم على النشر يستدرك الوضع، أما الحذف من بعض المقالات ، فهذا مالاحيلة فيه، وأنا شخصياً أعانى من جراء ذلك، فقد أكتب فى اليوميات مقالاً متماسكاً لاسبيل إلى الحذف منه ،ثم أفاجأ باختصاره للحرص على إعلان صحفى هبط على الجريدة فجأة ، وهو لديها أعز من المقال، فأسكت بدون أن أعترض وقد أكتب مقالاً لايرتفع إلى مرتبة الجودة ، ثم لاتصادفه نائبة تحذف منه شيئاً بأكمله، والحظوظ التى تعترى البشر، تعترى المقالات ، فقد تولد طفلة رائعة الجمال فى بيت فقير لاتجد ربته الضروري الذى يساعد على تربيتها ، وقد تولد الدميمة فى قصر فاخر وتجد من عشرات الخدم من يترقب رغباتها فى دقة وسرعة! ولايهمك إذا تعلق الحذف بعنصر هام، فإن الأذواق تختلف ، وقد يرحب القراء بالموجود أكثر من المفقود.

لم يخرج الأستاذ محمد زكى عبد القادر عن طبيعته الهادئة فى الرد علىّ، فقد تحدث وكأنه يكتب مقالاً يعرض فيه الوجهات المختلفة ، فقلت له: أتمنى من الله أن أرزق شيئاً من رحابة صدرك واتساع أفقك لأستريح، فأنا ضيق الأفق ، ضيق الصدر، سأستعيد ماقلت بينى وبين نفسى، ولكن هيهات أن أبلغ أوج الكاتب الفيلسوف!

لم أقابل الأستاذ بعد هذا الحديث ولكننى قرأت نبأ انتخابه عضواً بمجمع اللغة العربية فأبرقت إليه مهنئاً ، ثم لم أجد البرقية الصغيرة تكفى عن خواطرى، فأرسلت إليه خطاباً مسهباً، أقول فيه:

إن أكثر من لجنة فى لجان المجمع ستسعد بمشاركته ، لأنه كاتب موسوعى مجدد، وإنه سيخلع النشاط والجدة فى كل مكان يسعد بنشاطه، ورد على الأستاذ بخطاب شاكر يعلن أنه فرح بالبرقية وبالخطاب لأنهما صدى نفس صادقة مخلصة، مهما بالغت فأسرفت، وطلبت أن أزوره بمكتبه وهذا لم يتح ، لأن الأمور تجرى كما يريد خالقها أن تكون.

* * *